وهم التفكيك ومتاهة التأويل في الفكر العربي الحديث

بقلم

د/ بوبكر معازيز

جامعة ابن خلدون- تيارت. الجزائر

maziz_69@yahoo.fr

المقدمة:

هل يمكن الحديث عن فكر عربي حديث بمعزل عن الفكر الغربي ؟، وهل يتلاقح هذا الفكر مع نظيره الغربي أم يتقاطع ويتدابر؟ ماهي الأسماء الأكثر ثقلا في هذا الفكر؟،ماهي أسئلة الإصلاح والهوية في هذا الفكر ؟،حوار الحضارات ..أية مصداقية؟ وهل فعلا يمكن الحديث عن نهاية التاريخ بما يسمى النموذج الغربي؟.. ينتهي بنا القول إلى أنّ الأزمة الحقيقية التي يعاني منها الفكر الغربي والعربي على السواء، هي أزمة تعكس نوعين من مظاهر اغتراب هذا الفكر، اغترابه الأول في توليه الكلي نحو الغرب دون سواه ،ورفض كل البيئات المغايرة وتحريف الكثير من مضامينه ومعانيه. واغتراب ثاني عن ثقافته المحلية التي ترفض خصوصياتها الدينية والتاريخية قبول أي مصطلح ملتبس وغامض.

إنّ الأزمة تكمن في محاولة تمرير هذا الفكر بتجريب مختلف الوسائل والأساليب. هل أفدنا من الحداثة ومقولاتها المركزية ؟ وما علاقة تلك المناهج والتيارات التي يتعلق بها مفكرينا باليهودية..؟ وهل يمكن الحديث عن فكر عربي صميم يستطيع أن يضمن ارتفاق بالفكر الغربي، ويقمع كل فكر متطرف من قبل التفكيكية مثلا، خاصة إذا سلّمنا بأن كل هذا الاستقدام هو استقدام مزيف لا يخدم الأمّة. قصارى القول أن

مفكرينا من أمثال عبد الوهاب المسيري، ونصر حامد ومحمد أركون والجابري وبنعبد العالي وأدونيس وإدوارد سعيد ،ومن حذا حذوهم لديهم هذا الانبهار بالحداثة الغربية ولكنّهم يرفضون التحيّز ويطمحون ليكون للفكر العربي موقع قدم في خارطة القوى الفكرية المؤثرة،كما أنّ نقد العقل العربي بوضعه الرّاهن يدشن لديهم حقبة جديدة تصبح البداية وليست النهاية .

القسم الأوّل: الفكر العربي الحديث ومُحاولة العُبور إلى الكونية

لازالت قضية الفكر تستثير اهتماما بالغا ونقاشا واسعا في العالم العربي وغير العربي بنتائج مختلفة ومتباينة،نتحدث عن الهويات وعن الموقع العربي ضمن ارتحالات المعاني الفكرية،وعن تلك القضايا الآنية التي تهيمن على عقول المفكرين،ولكننا نقر – في كثير من الأحيان- بالعجز بسبب كونها تحتاج لإجراءات مقنعة للتحليل والممارسة،فانكفاء الإنسان على الماضي قد يكون مدخلا للانهزامية والاغتراب عن ما يجري في العالم المحيط ، لذلك ينبغي التّحديث والتجديد لكلّ المقولات الفكرية والخطابات المختلفة التي من شأنها أن تدفعنا للدخول إلى المستقبل بذراعين مفتوحتين كما يرى إدوارد سعيد .ولذلك فغايتي من هذه الكلمة مناقشة هذه القضايا التي تشغل الفكر الإسلامي تحديداً ومواجهة كل ذلك بما يحيط به،ويحاول القول هنا الإجابة عن بعض الإشكالات في تلقي العقل العربي الإسلامي للتراث من جهة كونه المقدس ، والحداثة باعتبارها مدنس نهدر الوقت في استنطاقها وتمثلها .

– أولا: الفكر و دلالة المفهوم:

يطلق الفكر في اللغة على عدة معان ،منها إعمال الخاطر في الشيء، ومنه إطلاق التأمل على التفكر كما عبر عنه الجواهري ،فقال "التفكر التأمل"[1]، وهذه العبارة

1- ابن منظور لسان العرب، مادة فكر.

وحدها تتكون من (القصد الإرادي)، (العملية الذهنية)،(موضوع الفكر)،و(الربط بين القصد والعملية الذهنية)[2]

إنّ النظر والتأمل هو عملية عبور ذهنية تُمكن الإنسان من الدخول إلى عالم الأشياء والموضوعات، وتجعله في حوارية دائمة معها من أجل صناعة أجوبة عن حياتها وعن علاقاتها بحياته، ويتوسل الانسان بخبرات متعددة لدراستها وتفكيكها، لأنّ مسألة العبور هذه تقتضي وعيا قادرا على مسايرة إفرازاتها المختلفة ،وقد حث القرآن الكريم على هذه العملية حثاً في قول الله تعالى (إنّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكّرون)،سورة النحل الآية 11.،ومن هنا نرى أن التفكير والتّدبر خصوصية للدّين الإسلامي، وهو الدّين الوحيد الذي يدعو لإنتاج المعرفة بهذه الخاصية العقلية.

ومن حيث الاصطلاح فإن الفكر ينسحب إلى : (الفكر)، و(العقل)، و(العلم)، وهو عملية عقلية، وقد يكون حركة لتفسير الحوادث والأحوال ،ويشترط فيه العلم لأنّ العلم سابق ومتقدم، وعموما لكي نميّز الإنسان عن سواه من الكائنات ينبغي التشديد على (العلم ثم الفكر والتفكر، ويليه العقل والتعقل وهو شكل راقي من العبادة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا علي لا فقر أشد من الجهل، ولا عبادة مثل التّفكر "[3].وهذا يعني أن الإسلام لا يُرغب في "هدر الثروة العقلية "[4]التي تنتهي بالاغتراب الثقافي للذات العربية.

---

[2] – للتوسع ينظر محسن بن زاكور: مقاربة منهجية لبعض القضايا الآنية للفكر الإسلامي المعاصر،(ط1)،2008،ص11

[3] – محسن بن زاكور ،ص16

[4] – (الهدر العقلي،بأنّه اعتقاد الإنسان،سواء امتلك عقلا فلسفيا أو عقلا لاهوتيا/ فقهيا،أنه قد استطاع بناء ثقافة أو أنه قد بُنيت له ثقافة ستعيش مدى الدهر،دون أن تخضع للنقد والتطوير،وهو أحد العناصر المكونة للاغتراب الثقافي،غير أن الهدر يمكن أن يوجد بدون اغتراب...للتوسع ينظر حازم خيري : مقالات في الفكر الأنسي،المؤسسة الجامعية للدراسات و للنشر والتوزيع ،(ط1)،2010،ص150،وص 53

وإنّ تحديد المفهوم "يكتسي أهمية أساسية ودلالة رمزية تتمثل في إدارة الانفتاح على كل المظاهر التي تمس الحياة وخاصة المستجدات العلمية والمعرفية. وبهذا فالفكر هو عملية ذهنية لإنتاج المعرفة بالواقع المعيش في تجلياته المختلفة هو نفسه ثمرتها.ولهذا فالفكر هو إنتاج الخبرة والتجربة والمعايشة الحية المستخلصة من الواقع،وقد تكون هذه المعرفة محدودة بموضوع جزئي،أو بقضية عامة أو بخبرة آنية في لحظة زمنية محدودة،أو لحظة تاريخية ممتدة،وقد يغلب عليها الطابع الانطباعي أو الخيالي أو الأيديولوجي ،وقد تكون نسقا فلسفيا أو معرفة نظرية،ولهذا فالفكر كفر غير مستقل عن واقعه المعيش بمستوى أو بآخر وغير سابق عليه في الوقت نفسه "[5]

وعموما فإنّ المفهوم ليس بسيطاً ولا أحادي المكون،وكثير من المهتمين يفرق بين المفهوم والمصطلح، فهو "مغاير بطبيعته وخصائصه،وهو شيء آخر يختلف عن الاسم ويختلف عن المصطلح"[6]،وهو شديد الصلة بتاريخه ومرتبط بهذه البيئة التي ظهر بها،"لا وجود لمفهوم بسيط.كل مفهوم يملك مكونات،ويكون محددا بها.للمفهوم إذاً رقم.إنه تعددية، حتى وإن لم تكن له تعددية مفهومية، لا وجود لمفهوم أحادي المكون: وحتى المفهوم الأول،الذي تبدأ به فلسفة ما فإنه يتوفر على مكونات كثيرة، مادام ليس بديهيا أن على الفلسفة أن تكون لها بداية،وحتى،وإن حددت بداية ما فإنها تضيف إليها وجهة نظر أو سببا"[7].

ولذلك فالفكر العربي الحديث ينحو بنا مناحي متعددة ومختلفة في آن، فقد يتحيّز لتراثه،وقد يختلف في الحكم عليه والانتصار له، كما أنّه ملحاح على التّبعية للفكر

---

[5] –عبد الغني السلماني:الخطاب الثقافي في زمن التحولات (قراءة في المنجز الفكري والنقدي)،عالم الكتب الحديث،الأردن،(ط1)،2016،ص35

[6] – علي صديقي: مطارحات نقدية في الأدب والفكر، (ط1)، 2013،ص88 وما بعدها

[7] – علي صديقي :المرجع السابق،ص89

الغربي ومتهافت على مفاهيمه،وهو أمر دفع أغلب مفكرين يعتقدون أن الفكر الغربي كوني ومطلق، ومتعالي، وهو ما يعني أنه ينبغي استيعاب مقولاته ومناهجه استيعابا جيدا ، ومحاولة تأصيله بالبحث له عن أشباه ونظائر في التراث الفكري الغربي،مع تجاهل تام لسياقاته وظروف نشأته في حين أن هذا الفكر يعيش أزمة حادة تنذر بنهايته وهي "انتقال هذا الفكر من مرحلة بناء الأنساق الفكرية والفلسفية إلى مرحلة تقويض هذه الأنساق وهدمها، ومن مرحلة المادية الصلبة المرتبطة بالعقلانية المادية ، التي وإن قضت على الأسس الدينية وغير المادية للمعرفة والأخلاق (خاصة في مجال الحياة العامة) بأن جعلت المادة المتغيرة وقوانينها هي المرجعية الوحيدة والركيزة الأساسية لأي رؤية للواقع ،إلاّ أنها استطاعت أن تؤسس (نظما) معرفية وأخلاقية ستند إلى نقطة ثبات مثل العقل والطبيعة البشرية والقوانين العلمية.."[8] .

– ثانيا : الفكر العربي في مواجهة المُغلق والمُسبق

الفكر العربي الحديث هو كل ما يصدر من علم ومعرفة تستند على أصول ومرجعيات معرفية لا تتطاول على التراث بما يحويه من علوم فقهية وعلم التوحيد وفلسفة وعلم الكلام وعلوم القرآن وعلم المقاصد ،وجملة العلوم الحياتية والمفاهيم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والثقافية والنفسية، وهو لا يختلف عن الخطاب الإسلامي في هذا الشأن. وإذا فنحن أمام ماض "لا يمكن إلاّ أن يصبح حاضراً ولكنه لن يكون كذلك إذا غدا حضوره ثقيلا جاثما مكبلاً لكلّ حركة، قاضيا على الزمان. إنّ الحضور لا يكون كذلك إلاّ إذا تخلله الزمان، ولن يتخلله الزمان إلاّ إذا غدا حركة، ولن يكون حركة إلا إذا كان انفصالا وفراغات وقطيعة"[9]، لذلك فالفكر الحديث

[8] – عبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي:الحداثة وما بعد الحداثة، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، (ط1) ،2012،ص18، وينظر علي صديقي مطارحات نقدية في الأدب والفكر، ص 110ومابعدها .

[9] – عبد السلام بنعبد العالي: ضد الراهن،دار توبقال للنشر،(ط1)،2005،ص9

ينبغي أن يواجه التراث مواجهة إفادة وتجاوز، فالفكر يقدّم نفسه على أنه ضد الراهن ومقاوم للماضي الجاثم،ومقاومة للتقليد التافه الذي يُكلس التّراث ويحنّطه ويسجنه داخل قوالب جاهزة بفعل تأويلات نهائية منغلقة على نفسها.

ومن الأسئلة التي تلح علينا،وقد ظفرت بإجابات متفاوتة إيجازاً وإطناباً،وضوحا وغموضاً،ولازالت الحيرة تكتنفه هو هل يوجد فكر عربي يعوّل عليه،ويستطيع أن يشتغل على التناقضات التي يعيشها الانسان العربي وعن علاقته بالأطياف الفكرية الأخرى،وهل ثمة تعارض أم تعالق وتداخل معها؟ .

ولعلّ ما يميز هذا الفكر بدءا هو أنه يقوم على الاختلاف والإقصاء والصّدام ،فهو مختلف في قراءة التراث ومختلف في القطيعة معه،ومختلف كذلك في فهمه وفي علاقته مع الأطياف الفكرية الغربية،ولذلك نجمت صعوبة تحديده وتعليل مقولاته وتبريراته،لأنّ الصُّورة الرّاهنة للفكر العربي صُورة مغرية ولكنّها غامضة تستدعي من القارئ للفكر العربي الحديث أن يتسلّح بوعي معرفي كبير عن معالمها ومشاهدها ولحظاتها القوية.إذ لا يتعلق الأمر بشخص بعينه ولكن بمنظومة كاملة حيث إنّ المعركة ليست " متخيلة أو مفترضة، بل معركة حقيقية على مستوى الفعل كما على مستوى العقل"[10]. وإننا لنعتقد بأنّ هذا الصراع وهذا الخلط هو الذي يعمم فكرة وجود فكر عربي يحاول أن يجيب عن مقتضيات الحياة العلمية ومقومات الانسان،وفي الوقت نفسه يزيل فكرة الصّراع التي نتعمّم بها في ثقافتنا العربية اليوم وقبل اليوم ، ويصل بفكرنا إلى نوع من الاحترافية، وإني ألاحظ أن ثمة كثير من رجال الفكر عندنا حاول مشكورا الانتقال بالفكر إلى هذه الاحترافية بدءا بمحمد عبده ومرورا

[10]– عبد النبي الحري: طه عبد الرحمن ومحمد عابد الجابري، صراع المشروعين على أرض الحكمة الرُّشدية،الشبكة العربية للأبحاث والنشر،(ط1)،2014،ص27

بالإسهامات الجديدة التي سيأتي ذكرها في هذه الورقة . فهذه الفكرة تقودنا إلى "الانتقال من حضارة اللفظ إلى حضارة الأداء.وليس الأمر مقصوراً علينا،بل إنّه ليعمّ الدنيا بأسرها في تحوّلها الرّاهن.إنّه تحول يسير في خط واحد،ولا مجال فيه للاختيار والتردد،إذ هو –دائما وفي جميع الحالات– انتقال من ثقافة الكلمة إلى ثقافة العلم المؤدي إلى العمل،وإنما هو عمل محدد الخصائص،إذا أريد للأمة أن تكون معاصرة،وذلك أن يكون عملاً في دنيا الصناعة بمعناها الآلي الحديث لا بصورتها اليدوية القديمة "[11].

وإذن بناء الانسان وعصرنته لا يتم إلاّ بهذا الانتقال المعرفي الذي نتجاوز به تلك الإتكالية وذلك التقليد الذي وقعنا فيه طيلة استحضارنا لتاريخنا المجيد. ويقتضي منا أنّ نعلم أن الفكر العربي القديم كان يعتمد ثلاثة أطراف هي (اللاعقلاني)، و(العقلاني)، و(السلوك)[12].. ولذلك فضرورة أن " تستيقظ المعرفة العربية المعاصرة من سباتها وتتخلّص من كل ما أبقاها أسيرة لميراث نزعة إنسانية لم يعد بمقدورها أن تواجه فتوحات المعرفة المعاصرة"[13]، وربما هذا ما يتصدّر الفكر العربي الحديث في أعمال أدونيس ومحمد أركون،وعلي حرب، والجابري وطه ع الرحمن، ونصر حامد، ومحمد بنيس وغيرهم ممن تناول التراث العربي وحاول الخروج به من دائرة الأيديولوجيا الضيقة إلى دائرة الكونية.

---

[11]– زكي نجيب محمود:تجديد الفكر العربي، دار الشروق،(د ط)،2004،ص234

[12]– كانت هناك ثلاثة أطياف في الحياة الفكرية عند الأقدمين،طرف منها لاعقلاني يعتمد على الغوص إلى الحقيقة الروحانية مهتديا بإلهام أو بحدس مباشر،وطرف ثان عقلاني يستخدم طرائق المنطق النظري في حجاجه، وغالبا ما يتأثر بثقافة اليونان،وطرف ثالث لا يتخذ موقعه في مجال "الفكر" بقدر ما يتخذه في مجال السلوك سلوكا يتفق مع شريعة الدين . ينضر المرجع السابق ص 145،144.

[13]– أحمد دلباني: سفر الخروج اختراق السبات الأيديولوجي في الثقافة العربية،دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر،(ط1)،2010،ص7

وفي الحق إنّ العقل المنبثق اليوم ، لم يعد مفتوناً بالإنشاءات المعمارية النّظرية الكبرى على غرار ما عرف في الفلسفة الكلاسيكية مثلا، ولم يعد ينجذب إلى بناء المنظومات المعرفية المغلقة التي تسجن المعنى داخلها وتمنحه صفة التعالي على الواقع والتاريخ.إنّه عقل إشكالي، تقوده فاعلية الانفتاح على التاريخ ومعطيات الواقع المعقد إلى تدمير كل ما يجده في طريقه من سياجات دوغمائية تمارس طرحا استبداديا للحقيقة وهيمنة رمزية باسمها"[14]. من هنا ،فهو "عقل يحترم تعقد الواقع و يتبناه كما يعبر أركون"[15] . ولذلك نتساءل مطمئنين عن الصُّورة النّموذجية التي يمكن أن يكون عليها الفكر العربي، وهل المفكر هو المثقف؟،خاصة إذا علمنا أنّ "المثقف هنا هو ذلك الرجل الذي يتحلّى بروح مستقلة، محبة للاستكشاف والتحرّي، وذاتنزعة نقدية واحتجاجية تشتغل باسم حقوق الروح والفكر فقط (الفلاسفة الكلاسيكيون كانوا يقولون باسم القوة العاقلة أو العقل)"[16]. والقيمة إذن هي أنّ:

1- العالم أو المثقف يغطي حقلا من الكفاءات (العلوم الدينية أو التقليدية/ والعلوم الدينية والعلوم العقلية الدخيلة)، التوحيدي ، الجاحظ، الكندي والفارابي وابن سيناء وابن رشد وهؤلاء مارسوا البحث الفلسفي الذي يقوم على هضم الدين وتمثله،ولذلك فمجال الفكر في القديم كان يتشكل ويتوسع بتوسع المجالات المعرفية،وقد ظهر هذا الهم في جل العلوم التي كانت معروفة في تلك الفترة التي نطلق عليها المرحلة الكلاسيكية (علم النحو،علم التاريخ، الطب ، والعلوم الطبيعية، وعلوم اللغة ..)

---

[14]- أحمد دلباني :المرجع السابق،ص78

[15]- محمد أركون: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، تر هاشم صالح، دار الساقي، (ط1)،2002،ص15

[16]- محمد أركون:الفكر الإسلامي نقده واجتهاد،تر هاشم صالح،دار الساقي ،(ط6)،2012،ص11

2- الجديد الذي نشأ في الثقافة العربية والإسلامية هو ما يطلق عليه محمد أركون ظهور (المثقف الناقد) وهو المثقف الذي درس في الغرب وانبهر بإنجازات العقل الغربي،وقد كانت هناك مراحل عديدة منها: (المثقف الليبيرالي1820-1952)،و(المثقف الثوري 1952- 1979)،وقد حصل نوع من التنافس والشّك والإقصاء فيم بينها،وبين التيارات الأخرى المعادية لها وخاصة الدينية.

3- وإذن المثقف العربي المعاصر ينبغي عليه" الانخراط في إستراتيجية شاملة للتدخل العلمي من أجل فتح العقليات المغلقة وتحريرها ،وربما قادته هذه الإستراتيجية إلى تركيز الجهود على الفعاليات الأربع: (نقد الخطاب)،التأريخ النقدي للفكر العربي الإسلامي)،(البحث الأنتربولوجي)،و(إعادة الاعتبار للموقف الفلسفي)"[17]، وهو نفس المسلك الذي نفذ إليه المفكر الغربي في العصور الحديثة ،لتأسيس الكيانات الثقافية الكبرى التي يعوّل عليها في صناعة الإنسان والإجابة عن انشغالاته الفكرية والأخلاقية والدينية والاقتصادية،ولذلك هل يستطيع المفكر العربي الحديث ضبط الفاعلية (العقلية)و(الثقافية) لتجاوز الأزمات التي يتَملمَل فيها الفكر العربي الحديث؟.

هناك "إجماع كبير على أنّ العقل الحديث يتميّز عن كل تجلياته وممارساته السابقة بكونه اكتسب القدرات الفكرية والعلمية للخروج من الانغلاق الذي طالما استدرجته إليه انحرافاته الأسطورية التاريخية والأسطورية الإيديولوجية في صدامه بالواقع.هذا ويقال إنّ الحركة المتواصلة لتاريخ الغرب تكمن في قدرته على الخروج من الأزمات ليتقدم كثيراً حتى يواجه عائقا جديداً"[18]

---

[17]-محمد أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص25

[18]- محمد أركون : الأنسنةُ في الإسلام مدخل تاريخي نقدي، تر محمود عزب، دار الطليعة-بيروت،(ط1)، 2006، ص163

هذا لا يعني أننا نؤيّد الممارسات التي يركن إليها العقل الغربي، ولكننا نؤكد أنّ العقل بصفة عامة ، أصبح يتميز بكونه يحاول التّخلص من الإنغلاقات التي وقع فيها من جرّاء التّسرع والتّعصب لثوابته، وهو هنا يريد أن ينفتح ويؤكد وجود آخر عبر منافذ العقيدة خاصة.

ونبذ الأدوار الاستلابية التي توقعه فيها العادات والتقاليد والخطابات التربوية والأسرية والجنسية. فهو يتقدم باتجاه إصلاح العقل وتبرير الفشل الذي هيمن على الذات العربية منذ صدامها مع الغرب.وهذه الحساسية هي التي تؤمن بالتّجديد، طبعا التّجديد الذي لا يُساء فهمه، حيث يمكن لنا أن نعلن أنّ المعنى مهما كان "لا ينبني ويتشكّل إلاّ لكي ينهدم وينهار،فالمعنى يتشكّل عن طريق تدمير المعنى،أو على أنقاضه.ينبغي تدمير المعنى القديم الضيق الذي لم يعد ملائماً لكي يحلّ محله معنى جديد أكثر رحابة واتساعا، وهكذادواليك..ويمكننا تقليد جوليا كريستيفا هنا ونقول:التّوليد الهدّام للإنسان:أي الذي يلغي إنساناً قديماً و تقديساً قديماً[19] لكي يُحل محلّه إنسان جديد.هناك دائما إنسان جديد ينهض على أنقاض الإنسان القديم"[20].

ولذلك فالتّخلص من هذه التّوترات والاختلاجات التي تعاني منها الشخصية

---

[19]– مثال (عبارة نيتشه الشهيرة "موت الله" لا تعني أن الله يموت بالمعنى الحرفي للكلمة، أو أنه يموت في المطلق وإنما تعني أن هناك نمطا محددا من التّقديس (هو نمط القرون الوسطى) قد مات وانهار.لقد قضت عليه الحضارة الصناعية والتّقدم العلمي والتكنولوجي الذي بلغ أوجّه في عصر نيتشه (أواخر القرن التاسع عشر)، واكتسح وجه أوربا كلها.إذن فنيتشه لم يخترع شيئا ،فقط اكتفى بملاحظة ما يحدث حوله كما يلاحظ العالم بكل برود وموضوعية ظاهرة كبيرة ما .ومشكلته أنه استيقظ قبل غيره وأطلق صرخته الشهيرة.سؤال نيتشه كان هو التالي: كيف يمكن لهذا التقديس القديم الذي يسيطر على البشرية المسيحية الأوروبية طوال قرون وقرون أن يتفسّخ وينهار لكي يحل محله تقديس آخر جديد: تقديس العلم و آلهة العلم والسيطرة على الطبيعة والكون والأشياء..؟

[20]– محمد أركون : الفكر الإسلامي نقد واجتهاد،ص261

العربية الإسلامية يمر من هذه الزاوية شريطة أن نحتكم لصوت العقل والمنطق ونبتعد عن التّهريج الذي يُهيمن على الكثير من المركزيات الفكرية العربية وغير العربية ، وفي الحق فإنّ الاختلاف هو "الأصل"،ولكنه أصل يتعذر معرفته وإدراكه كما يرى دريدا[21] .

القسم الثاني: الشّواغل المركزية في الفكر العربي ووهم التفكيك

لاشك أننا سنجد أنفسنا مرغمين على الإشارة إلى فترة الموحدين التي عرف فيه التفكير العربي نوعا من الحركة المحمودة ،والتي كان لها دور فاعل في ترقية الإنسان العربي ، بعدما كانت حالة "العالم الإسلامي في الوقت الذي قامت فيه دولة الموحدين لا تبعث على الاطمئنان، فالدولة العباسية بالعراق ودولة الفاطميين بمصر بلغتا إلى دور الهرم المزمن الذي لا قيام بعده، ودولة المرابطين بالمغرب كانت كافرة مجسمة في نظر المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين،وإن كان لم يشايعه على هذه النظرية سوى أتباعه منهم، وكان ابن تومرت هذا ساح في الشرق حيث أخذ عن الغزالي وأبي بكر الشاشي وابن عبد الجبار ببغداد،وعن أبي بكر الطرطوشي بمصر، وفي المغرب حيث قرأ على ابن أحمدين بقرطبة من الأندلس، وعاين حضارة هذه البلاد التي ساح فيها، وتشبّع بأفكار أهلها عامة، وبخاصة أساتذته، وبصفة أخص الغزالي"[22].، وقد آمن هذا الرجل والمؤسسين من بعده ، بأنه ينبغي أن تُعالج مظاهر التخلف والانحطاط التي عليها العالم الإسلامي، بتأسيس خلافة إسلامية عامة تضم هذا العالم و بزعامة الدولة الموحدية،وقد عمل هؤلاء على أن تكون حضارتهم مطبوعة بطابع العظمة والدين والتّجديد في معظم مظاهرها.وقد اجتهد هؤلاء في التفرد والتّميز، وقد حاولوا نشر حضارة تقوم على (العظمة)، و(الدين)، و(التجديد)، وقد ساعدهم

[21]– ينظر علي صديقي: مطارحات نقدية في الأدب والفكر،عين برانت ،وجدة،،(ط1)،2013،ص27 -28

[22]– محمد المنوني: حضارة الموحدين،دار توبقال للنشر ،الدار البيضاء، (ط1)،1989،ص11

في ذلك أن البلاد المغاربية لم تكن قاحلة من المعارف، ولكنّهم وجدوها بلغت شأوا عظيما في المعارف وفي تعظيم حدود الله وشعائره.

وقد كان "فضل الموحدين على المعارف عظيماً،فإنهم حافظوا على ما اختاروه منها إلى حد كبير وشجعوها،كما شجعوا كثيرا من العلوم التي تكن رائجة أو كان محظورا رواجها في العهد المرابطي،وطبعوا كل ذلك بطابعهم الثلاثي الخاص، وإنّ تشجيعهم للمعارف التي كانت شائعة في عهدهم بلغ مبلغا عظيماً،وكان تشجيعا مادياً وأدبيا وتفننوا فيه ما شاءت لهم هممهم الكبيرة أن يتفننوا"[23]، وشاعت عندهم تقاليد في السياسة والأخلاق والاجتماع والتربية والجهاد، وازدهرت لديهم المعارف المختلفة، وحرصوا على تطويرها بدءا بعلوم اللسان والتاريخ والفلسفة والمنطق،والتنجيم ،والأدب والإدارة، وسائر الفنون الأخرى التي تُمكن للإنسان وتُنبت لديه الشعور وقناعة بضرورة إعمار الأرض، والإطمئنان إلى معاشه وقبوله لأصناف التّفكير الذي يقوده ويُؤسس له مسارات حياته ..

ولاشك أنّ هذا العهد هو عهد منظم من حيث الالتفاف حول الأفكار التي كانت سائدة وكان يؤمن بها إنسان الموحدين سواء في تفاعله مع تراثه العربي الإسلامي أو تفاعله مع العقليات التي تحيط به وتصطبغ بصبغة مخالفة له وخاصة في الجانب العقائدي، وقد كان في هذا الشأن بالذات يلح على الإسلام ويؤكد سيادته وسطوته، وقد كانوا "يريدون أن تكون هذه الحضارة لا شرقية ولا أندلسية محضة، ولكنّها حضارة قائمة بنفسها،آخذة من هذه وتلك وغيرها، وإن طغت عليها الحضارة الأندلسية"[24] لاحقا.

---

[23]– محمد المنوني: حضارة الموحدين،ص14

[24]– المرجع السابق ،ص13

وإذا كنا لا ننكر أنّ بين عصر الموحدين والعصور التالية أكثر من نقطة تماس وبؤر صراع، وإذا كان عهد الموحدين قد رافع من أجل الإنسان بطريقة منتظمة ، وبالنّماذج الفكرية التي يسترشد بها على تفرد هذا العصر في عثوره على مفتاح تقدمه في مجالات الحياة المختلفة،وقد نحا هذا العهد في "تقويم التراث منحى غير مسبوق ولا مألوف"[25]، وتوسل بأدوات ذكية في قراءته وتحليله.

- أولاً التراث[26] في مواجهة المركزية الغربية:

فإنّ العصر الحديث قد اجتهد في تقريب كثير من القضايا،ورافع عن الهوية الذي استبعدها فكر ما بعد الحداثة ،كما أنّ "التأكيد على الهوية هو بالطبع ما لا يحتاج إلى الدفاع عنه أو التذكير بضرورة الاضطلاع به..وقد طرحت الهوية في العالم العربي ضمن خطابين رئيسيين :الخطاب القومي، والخطاب الإسلامي/ الأصولي، وفي كلا الخطابين لم تكن الهوية محل تشكيك على المستوى الفلسفي الابستمولوجي، كما هو الحال في الفكر الغربي المعاصر، ومن ثم لم تنشأ الحاجة إلى تبرير الحديث حول الهوية أو تعريفها، وإنما كان المنطق،وما يزال إلى حد كبير،هو تحديد منطلقات الهوية أو محدداتها وليس ماهيتها أو الحاجة إلى مناقشتها"[27] وقد ظهر الاهتمام الحيادي العميق

---

[25]-عبد النبي الحري: طه عبد الرحمن ومحمد عابد الجابري،صراع المشروعين على أرض الحكمة الرُّشدية، ص109

[26]- (ولعل أول ما ينبغي إبرازه هنا هو تداول كلمة تراث في اللغة العربية لم يعرف في أي عصر من عصور التاريخ العربي من الازدهار ما عرفه في هذا القرن،بل يمكن القول،منذ البداية، إنّ المضامين التي تحملها هذه الكلمة في أذهاننا اليوم،نحن عرب القرن العشرين، لم تكن تحملها في أي وقت مضى.هذا من جهة،ومن جهة أخرى،يمكن أن نلاحظ أن (الإشباع) الذي يتميز به مفهوم (التراث) في خطابنا العربي المعاصر يجعله غير قابل للنقل بكل شحناته الوجدانية ومضامينه الأيديولوجية،إلى أية لغة أخرى معاصرة...) للتوسع ينظر ع العروي.ع كيليطو، ع الفاسي، م ،ع الجابري: المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، (ط1) 1986،ص 71 وما بعدها .وينظر عزيز العظمة : التراث بين السلطان والتاريخ.

[27]- سعد البازعي: شرفات للرؤية حول العولمة والهوية والتفاعل الثقافي،المركز الثقافي العربي،(ط1)، 2005، ص36،37

والجاد لحظة التّصادم مع الغرب،ولكنّه ارتكز على المقولات والمصطلحات والمفاهيم التي قدمتها المركزية الغربية- الثقافية والتقنية- ، وهو أمر يُصنّف على أنّه مُنعطف غير متجانس ومتوحش في آن ،لأنّه يستنجد بعقلية غريبة في أدواتها وإجراءاتها من أجل تصميم أجوبة لحياته المغايرة ، وفي أحسن أحوال هذا الاستقدام كان "الخلط والمزج وعدم التفريق بين العقل والفكر[28] والموضوعات الفلسفية،والبُنى الأيديولوجية وتأسيسها المعرفي واتجاهات خطابها السياسي"[29] مهيمنا ،الأمر الذي أوقعنا في متاهات الاستنتاج والتّمثل.

ولذلك فإنّ التّحدي الذي تواجهه الأمة اليوم أعمق من ذلك الذي واجهته سابقا،فهو تحدي حضاري واجتماعي وثقافي أيضاً ،فإذا كان الموقف القديم قد "فرض على العقل العربي الانسحاب إلى الداخل،والاعتصام داخل حدود علوم (النّص)[30]

---

[28]- يعتمد العقل في حراك منظومة عناصره على مجموعة أدوات يمكن أن نطلق عليها تسمية الفكر،وهو الفكر النظري،باعتباره سيرورة إدراكية وعيوية تفسيرية متفاعلة موضوعيا مع ساحتين،ساحة الانطلاق (العقل)،وساحة الشغل (العنصر المحيط المناقش).أما النسق الثاني فهو الفكر التجريبي،باعتباره سيرورة ميدانية وقائعية يقرأ التجربة معزولة عنه تماما،ويعيد إنتاجها حسب مقولاته وأدواته،متفاعلا معها ودافعا بصيرورة عناصرها،ومدى معياريتها،نحو منظومة العقل...ويصبح العقل إذن،وعبر أنساق الفكر المذكورة،منظومة و"أداة "منهجية ناقدة لذاتها.لأن الفكر لايربط بعلاقة سلبية مع العقل، أي أنه يشتغل على عناصر الموضوع حسب المعايير من منظومة العقل،بل وعبر حركتيه المستمرة والدائمة يشتغل على نقد العقل نفسه في قدرته على استقبال ومواءمة العناصر المدروسة في صيرورتها،وإعادة إنتاجها بما يتواشج مع السببية،التي تتمثل بارتكازها في منظومة العقل وعناصر فعلها في الفكر ..ينظر جمال الدين الخضور، ص28 وما بعدها .

[29]- جمال الدين الخضور:عودة التاريخ في التأسيس للميثيولوجيا العربية،ج2الزمان والمكان في العقل العربي حتى الألف الثاني قبل الميلاد،دار الفرقد للطباعة والنشر،سوريا ،(ط1)،2010،ص20

- (القرآن نص لغوي يمكن أن نصفه بأنه يمثل في تاريخ الثقافة العربية نصا محوريا.وليس من قبيل التبسيط أن نصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة (نص)،بمعنى أنها حضارة أنبتت أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز (النص) فيه.وليس معنى ذلك أنّ النّص بمفرده هو الذي أنشأ.

والعُكوف على الثقافة والفكر يحميهما من الضّياع ويحافظ عليهما التشتت"[31]،فإنها اليوم تواجه أعداء من الداخل (التيار الرجعي)، وأعداء من الخارج يتربص بوجودنا.

ولعل الفلسفة العربية الحديثة قد اتكأت على (التراث)،ولكنّها في غير اجتهاد وإبداع،و"بهذا أضحت لآفة التقليد مشروعية فكرية وأيديولوجية يطمئن إليها بعض المفكرين العرب اليوم"[32]،ومن المفيد الإشارة إلى أسماء لهما بعض الاجتهاد والإبداع من مثل (طه عبد الرحمن)، و(محمد عابد الجابري)،و(محمد أركون)،و(نصر حامد أبوزيد)،و (عبد الوهاب المسيري)، في النظر إلى التراث ،وفي الدّعوة إلى "تجديد الخطاب الفكري العربي،وهي مشاريع تسعى سعياً جاداً وأصيلاً إلى بناء مقومات وشرائط الإبداع والتجديد عن طريق التحرر من براثن التقليد وجاذبية الحداثة.وهذا لا يتحصل إلى متى التزم المتفلسف العربي بقواعد ومقتضيات المجال التداولي الإسلامي العربي"[33]،لأنه في إمكان الفلسفة العربية خرق حجاب التقليد،وتخطي الأسوار التي ظلت مهيمنة على العقل العربي مدة لا تقل عن عشرة قرون،وبهذا يتمكن العقل العربي من التّصرف في المنقول الذي يوافق المجال العربي واختياره الفكري.وبهذا يكون سؤال النهضة أو التحديث قد طغى على التفكير العربي الحديث، ولكنّه اصطدم بالمركزية الغربية التي أوقعته في الفوضى والمغالطات، ولم يتمكن من اقتراح البديل لهذه الكونية الصادمة والمخيفة و العنيفة في آن.

= الحضارة، فإنّ النّص أياً كان لا يُنشئ حضارة ولا يقيم علوما وثقافة .إنّ الذي أنشأ الحضارة، وأقام الثقافة جدل الإنسان مع الواقع من جهة، وحواره مع النّص من جهة أخرى ..) ينظر نصر حامد أبو زيد ص 9 و ما بعد

[31]–نصر حامد أبوزيد:مفهوم النّصّ دراسة في علوم القرآن،المركز الثقافي العربي،(ط8)،2011،ص12

[32]– يوسف بن عدي: مشروع الإبداع الفلسفي العربي قراءة في أعمال طه عبد الرحمن،الشبكة العربية للأبحاث والنشر،(ط1)،2012،ص12

[33]– يوسف بن عدي: مشروع الإبداع الفلسفي العربي قراءة في أعمال طه عبد الرحمن، ص21

– ثانيا :النّهضة العربية وهامش التّحرر:

ولقد "امتلكت النهضة العربية جرأة نادرة في اغتيال خيارها الثقافي،وغالت إيغالا في هذا التّحطيم الذاتي دون أن تدرك بأنّ خيار المصالحة الداخلي، وخيار الاستيعاب لمكونات العقل العربي هي مفتاح السر في مشروعها ذاك،وهكذا راهنت النهضة العربية على تقدمها الحالم على حساب التعددية والحرية وتداول المعرفة والسلطة،سواء في القطر الواحد أو مجمل أقطار الوطن العربي"[34]. ومن أوهام النهضة :

1- الوحدة ،الهوية ،الأمن الثقافي

2- الهوية مهددة في وجود تواصل غير متكافئ مع الآخر.

3- الهوية والخصوصية هي الانفتاح وليست التقوقع على الموروث (الإقامة في الماضي) جلب لنا أعداء كثر دخلنا معهم في صراع وليس في حوار.

4- الخصوصية والهوية هي امتلاك لقيم حضارية مع تطوير وتأويل للتراث.

5- غياب الاستشراف أو أن عنصر المستقبل غائب في المشروع العربي.

6- الحلم بالماضي والطموح إلى استرجاعه.

وإضافة إلى ذلك فإنّ المفاهيم الفلسفية المتداولة عندنا هي مفاهيم تتجه لتَملك التراث الفلسفي،سواء (التراث الغربي) أو (التراث العربي الإسلامي)، وهي مفاهيم يمكن أن ترد إلى ثلاثة أساسية :

1 – مفهوم التاريخ وما يرتبط به من مفاهيم أخرى كالتراث والكلية التاريخية والإرادية والاستمرارية والقطيعة.

2– مفهوم الهوية وما يتعلق بها كالأصالة والقومية والخُصوصية والتّغاير.

---

[34]– إدريس هاني: ما وراء المفاهيم من شواغل الفكر العربي المعاصر،مؤسسة الانتشار العربي، بيروت،(ط1)،2009،ص70

3- مفهوم الأيديولوجيا،وما يرتبط به كمفهوم التأويل والقراءة الموضوعية والحقيقة والواقع واللاشعور والخيال[35].

ولذلك فعلاقتنا بتراثنا الفلسفي[36] ، أو غيره علاقة تتجه نحو الإبهام والتعقيد، فإذا توجهنا للتراث،ينبغي أن نتساءل حوله،وعن القيمة من استنطاقه، وقبل هذا ينبغي أن نحدد الماهية أو المقصود من التراث، وهذا لم يحصل في التفكير الحديث،فنجم ذلك الخلط أو قل التفكيك من أجل التفكيك، فالفكر العربي الحديث في هذه النقطة بالذات يبحث عن سلف له يتكئ عليه ليثبت حضوره ، يبحث عن ابن رُشد وعن إخوان الصفا والمعتزلة والفارابي، والجاحظ ولكنّه – في الحقيقة – يُشرّح الجثث الهامدة كما يقال ،أو يقبل الأموات ظناً منه أنه يتصالح معهم ويحظى بكراماتهم ، وحين نتجه للفكر الغربي عموما والفكر الفلسفي خصوصا، ينبغي النّظر في قضية (الأثر والتأثير)،المنبثقة بعمق في المثاقفة العربية والغربية، وهل الحوار بين الثقافتين حوار متكافئ أم تابع ومترجم لا يقوى على الإبداع والتمايز[37]، من هذه الاتكاءات الغامضة ، وهذا الاجترار المتكرّر يبدو أن الفكر العربي الحديث يُنجز لعبة معرفية أقل جاذبية وأقل تأثيراً.

---

[35]- بوسلهام الكط: هل هناك فكر فلسفي مغربي معاصر..؟مجلة فكر ونقد،السنة الثانية،العدد17 مارس 1999،ص28

[36]- (وكما أنه لا وجود لمجتمع إنساني بدون تراث، فإنّ الإنسان الفكر والمبدع والعامل هو شرط ضروري وأساسي لهذا التراث.فبواسطة الفكر والعمل يستطيع الإنسان أن ينتج بوعي، كل ما بإمكانه أن ينتجه في جميع المجالات والميادين.ومن هنا تتبدى العلاقة الأساسية بين الفكر الإنساني والتراث على العموم،ومن هنا نتساءل مرة أخرى- أليس من حق الفكر العربي الحديث أن يهتم بالتراث الإنساني على العموم والتراث العربي الإسلامي على الخصوص بعيدا عن الاجترار وعن التبعية العمياء..).

[37]- للتوسع في هذه القضايا ،ينظر عبد السلام بنعبد العالي:التراث والهوية، دراسات في الفكر الفلسفي بالمغرب،وينظر كذلك عبد السلام ياسين: محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى.ومحمد عابد الجابري: قضايا في الفكر المعاصر.

ولتأكيد هذا المذهب نرى أن التعامل مع القضايا الشواغل في الفكر العربي الحديث ينصبّ على معاينة بسيطة لا تَعاطف ولا صَراحة ولا مُواجهة ولا نفاذ،إنّ هذا الفكر ينصبّ على أشياء مألوفة مراوغة وتُطعم الواقع ببعض البوح والسكوت والجدل ،حركة إبداعية معتمة لأنها "أجوبة لا تسمو إلى عمق السُّؤال ولا تستقرئ منه مشروعها، فهي تتردى في سذاجة الكيان المنحط وتتلون بانحطاطه العقلي"[38]، المشروع الفكري العربي الحديث يعيش حالة من التنكر لكل ما مضى،لأنّ الأشياء التي بحوزتنا الآن لا يمكنها أن تخلق جوابا لأوضاعنا الراهنة[39]، والمنفلت من بين أيدينا هو ما تستهدفه تطلعاتنا،وليس من المفيد أن نرسم خطاطات في خيالنا ونسقطها على واقعنا المهدور.إذن على الفكر الحديث وهو يقرأ هذه القضايا : التراث،العلمانية،الحداثة، ما بعد الحداثة، تداخل الحضارة وصراعها، الديمقراطية ،الإرهاب، اليهودية والصهيونية، الجسد والمرأة والجنس، والحرية، والحركات الإسلامية..)،لا يؤثث أطروحاته بأننا كائنات قُدّر لها ألاّ تنهض إلاّ بالتنكر لكل قيمها الاجتماعية والأخلاقية والدينية وأنّ ما بحوزتها لا يصلح للنّهضة وتجاوز الركود الذي نعيشه.

---

[38]– إدريس هاني: ما وراء المفاهيم من شواغل الفكر العربي المعاصر،ص50

[39]– (من هن تبدو النهضة العربية بدون مستقبل،لأنها لم تقدم سوى الاستعارات ولم تمتلك ما هو أصيل ومبتكر.استعار العرب كل ماهو نافل عند الشعوب الأخرى ونسبوه إلى أنفسهم كما يقول عبد الله العروي.. لكن يمكننا أن ننسب للنهضة ثلاثة عطاءات مختلفة تبحث عن واقع مطابق في يومنا الراهن.العطاء الأول يتجلى في قضية الحداثة بفصلها عن التجربة الأوروبية.العطاء الثاني يتناول التجديد في التفكير الديني على ضوء معطيات الحداثة.العطاء الثالث يتلخص بالعروبة المتحررة من نظرية القومية والمتجلية خصوصا في مجالي الثقافة واللغة..) للتوسع ينظر (نقد النهضة) خالد زيادة :مجلة دراسات عربية، العدد الثامن، يونيو 1983.

القسم الثالث: مصائر المشاريع الفكرية العربية في زمن التحولات وانهيار المتعاليات

لا ننكر أننا في زمن التحولات الكبرى[40] ،وانهيار القيم ، ولا ننكر أنّ هذا الزمن يكتنز إشارات عبثية ويركض لإعادة النّظر في كل المسلّمات بدءا بالجذور،و"بغية تأطير المزج ،والكشف عن دلالته يتعين الجواب عن الأسئلة :من يتكلم؟إلى من؟أين؟متى؟علام؟ولم يتكلم؟وهي تختزل بالمثلث (أنا ،هنا،الآن)"[41] ولا أختلف عن الأمم التي سبقتني إلاّ في كوني أطمح في أن أملك عقلا إشكالياً.إنّ المنطق المتحكم في هذا العصر منطق غريب يمزج بين الحلم والواقع، ويخلق الواقع الذي يُواجه به الأشياء "نحن إذن أمام ماض لا يمكنه إلاّ أن يصبح حاضرا ولكنه لن يكون كذلك إذا غدا حضوره ثقيلا جاثما مكبلا لكل حركة،قاضيا على الزمان.إنّ الحضور لا يكون إلاّ إذا تخلله الزمان،ولن يتخلله الزمان إلاّ إذا غدا حركة، ولن يكون حركة إلا إذا كان انفصالا وفراغات وقطيعة.هذا هو الشكل الممكن للتملك الفعلي للتراث،وهو لا يعني إطلاقا إهمالا أو عدم اكتراث،لكنه يعني كذلك ذوباناً في الماضي

---

[40]– لقد اختفت أو انسحبت (مفاهيم كالإيديولوجية،الصراع الطبقي، الوعي الطبقي،القومية،الامبريالية العالمية، حركة التحرير الشعبية، حق الشعوب في تقرير المصير، وأن هذه المفاهيم كانت توجه نظاما فكريا معينا، وهو النظام الذي ساد القرن العشرين كله تقريبا.. وفي مقابل هذه المفاهيم ظهرت ،في العقدين الأخيرين مفاهيم أخرى متزامنة، أو متتابعة في ظرف سنتين أو ثلاث، مفاهيم تؤسس لنظام فكري مختلف تماما،لعل أهمها وأكثرها اليوم انتشارا وشيوعا، المفاهيم التالية: النظام العالمي الجديد، نهاية التاريخ، صداما لحضارات، الهويات،العولمة، والعلمانية، وحوار الحضارات،..)، للتوسع ينظر،محمد عابد الجابري: حوار الحضارات أية مصداقية في عالم يحكمه صراع المصالح؟.مجلة فكر ونقد،العدد 44،ديسمبر2001،ص5 وما بعدها. وينظر كذلك ص23،وينظر ص37 وما بعدها . ويمكن إضافة الثورة الإلكترونية ، والقارئ المتصل، وغيرها من الأنظمة المعرفية .

[41]– رائد الصّبح: تقديس المُدنس في الشعر العربي المعاصر، المركز الثقافي للكتاب الدار البيضاء، المغرب، (ط1)،2017،ص148

وإنّما زرعاً لروح الانفصال وروح التحديث"[42]،إذن هذا العصر يريد قطيعة وانفصال ويريد ذوبانا كما يريد الدخول فيما يسمى بالتحديث من دون أن يبرر مظاهر الدخول وأسبابه.

- أولاً الحداثة (ملء فراغ أم اختراق ؟):

وبهذا المنطق هل يستطيع الفكر العربي الحديث مجابهة هذه المعرفة الجديدة التي تنكب على قراءات مخالفة ولكنها مخيفة أيضا،بكونها متعالية بكلّ ما تقتضيه هذه الكلمة من إقصاء لأطراف أخرى.ومن هنا فإننا نريد للثقافة العربية أن تبني طابعا جديدا على تقاليدها الثقافية،مبقية على الأساس ومضيفة إليه وجهة نظرها،وهو أمر ألح عليه التفكير العربي الحديث لدى أدونيس ، محمد أركون،علي حرب، حسن حنفي، طه حسين،محمد بنيس ، زكي نجيب محمود،إدوارد سعيد،وغيرهم ممن اشتغل على فكرة الثبات والتّحول، و"الوقفة الصّحيحة إذن هي أن ما بقيت ظروفه على حالها تبقى مبادئه مُثلاً عليا للحاضر كما كانت للماضي، وما تغيرت ظروفه تتغير مبادئه،فالموروث عن الأسلاف هو لنا بمثابة نقاط ابتداء، نبقي بعضها ونحذف بعضها بحسب ما تقتضيه حياتنا العصرية"[43] ، وبهذا نادت أغلب أطروحات الفكر العربي الحديث.

ولأنّ الأمة العربية قد مرت بمراحل انكسار كثيرة وعديدة، ولازالت تدفع الثمن غالياً، ولازلت المؤامرة مستمرة، ومن هنا تبرز الحاجة ويصبح الطلب أكثر إلحاحاً

---

[42]- عبد السلام بنعبد العالي: ضد الراهن،ص10

[43]- زكي نجيب محمود ،تجديد الفكر العربي،ص199،وللتوسع ينظر سعيد بنسعيد العلوي: الأيديولوجيا والحداثة قراءات في الفكر العربي المعاصر،ص51 وما بعدها.. وينظر علي حرب: الأختام الأصولية والشعائر التقدمية مصائر المشروع الثقافي العربي، المركز الثقافي العربي،ص27 وما بعدها وخاصة القسم الأوّل والثاني من هذا الكتاب...

لوجود كوكبة أقدام تقود مسيرة التنوير وتعيد للمثقف العربي دوره الريادي في خلق رأي عام مستنير وقادر على مواجهة ثقافة الخنوع والتغريب وتقبل واقع الحال رغم قتامة لونه وفظاعته"[44].فهل تستطيع أدوات التفكير العربي الحديث ، وأدواته الثقافية أن تستعيدَ دورها وتؤدي مهمتها المتعارف عليها في مختلف ثقافة العالم ،أم تظل في حالة الغيبوبة التي تعيشها منذ عقود؟.

فالفكر العربي أمام رهانات كثيرة أتينا على ذكرها سابقا وهي الحداثة وما بعد الحداثة ، فلم تعد "مسألة الحداثة تقتصر على كونها قضية. إنها تتجاوز ذلك لتصبح إشكالية على المستويات كافة: رؤية وإبداعاً وتلقياً، وعلى مستويات الاستجابة رفضا أو قبولا، وذلك أنّ الحداثة كمفهوم قد انفصلت تماما عن مفهوم التجديد أو المعاصرة، وهو انفصال يتفق عليه كل المتجادلين حول الحداثة، لأنّ الجميع يرضون بالتّجديد، ويقبلون بالمعاصرة، لكنّهم يختلفون حول الحداثة. من هنا تتميّز الحداثة، وإن لم تتحدّد"[45]، ولذلك فقد هرول بعض مفكري العربية نحوها وحشر مقولاتها للتّداول، ويمم بعضهم الآخر نحو التراث يريد أن يُخرج منه الطريقة المُثلى، فظهرت أسماء بحجوم مختلفة وعلى كلّ الأصعدة، ولقد انكشفت الحداثة أمامهم، فألقوا عليها كل الهموم الفكرية. وفي الحق فإننا "نعيش بالفعل زمنا يُوصف عن حق بأنه زمن العولمة الثقافية، وهي عولمة باسطة نفوذها بالتدرج على سائر المجتمعات البشرية بدون استثناء يُذكر، وهي أيضا رامية أيضا إلى ربط النّاس اقتصاديا وسياسيا وثقافيا، بأشياء وأحداث تقع خارج أوطانهم، وخارج تاريخهم، وخارج ذاكرتهم الوطنية"[46]،

[44]– سبف محمد المري: أدوات الثقافة العربية والغياب عن الوعي، مجلة دبي الثقافية، العدد69، فبراير2011، ص9

[45]– عبد الله الغذامي: تشريح النّص، المركز الثقافي العربي، (ط2)،2006،ص9

[46]– عبد الرزاق الداوي: في الخطاب عن المثاقفة والهوية الثقافية، ص12

فثقافة العولمة انتشرت بسرعة الضوء، وتفرض صيغها وأشكالها ومضامينها على كل الثقافات البشرية، وتقدم نفسها على أنها ثقافة عالمية وكونية ينبغي الخضوع إليها والاعتراف بمقولاتها ومقدرتها على احتواء العالم.

ولقد تنبّه العلماء بأنّ هذه الثقافة التي تقدم نفسها على أنها النموذج المثالي ينجر عنها التبعية والاغتراب والاحتقار للشُّعوب المغلوب على أمرها، وهذا أمر قد تنبّه له ابن خلدون في الفصل الثالث والعشرين من المقدمة" إنّ المغلوب مولع أبداً بالإقتداء بالغالب، في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ..لذلك ترى المغلوب يتشبّه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه.. بل وفي سائر أحواله.. فإنك تجدهم يتشبّهُون في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم.. حتى يستشعر ذلك النّاظرُ بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله"[47] ، وعموما نريد أن نؤكد على أنّ "الخطاب العربي المعاصر عن المثاقفة والهوية الثقافية إلاّ الناشز فيه، يعتبر المثاقفة ظاهرة تاريخية وموضوعية ويؤمن بضرورة المُثاقفة الإيجابية والمتكافئة[48].

كما يرى في الهويّة الثقافية مشروعا وجوديا قابلا للتّجدّد باستمرار. وهو لا ينتقد ثقافة العولمة بل يعترض عليها في معاييرها البرجماتية لتأويل تلك المبادئ، وفي جوانبها العدوانية والمحتقرة للهويات الثقافية الوطنية للشعوب، كذلك في مظاهرها الاستغلالية والتّهميشية للمجتمعات النامية والمحوّلة لها إلى أذناب وتوابع"[49]

---

[47]-عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، طبعة دار البيان،بيروت،ص147

[48]-(كشف الانفتاح على ثقافة الآخر، عن عملية تواصلية معه، ساهمت بدورها في ظهور المثاقفة التي وقعت نتيجة الاتصال بين الثقافات المختلفة كالتأثير والتأثر و الاستيراد والرفض والتمثل وغير ذلك، مما أدى إلى ظهور عناصر جديدة في طريقة التفكير ،وأسلوب معالجة القضايا وتحليل الإشكاليات باعتبارها عملية تواصلية مستمرة مع الثقافة الغربية مما أدي إلى (هيمنة المركزية الغربية..)، (الاستجابة السريعة من طرف الثقافات المستقبلة... للاستزادة ينظر عبد الغني السلماني، الخطاب الثقافي في زمن التحولات،ص39 وما بعدها .

[49]- عبد الرزاق الداوي: في الخطاب عن المثاقفة و الهوية الثقافية، 2007، ص19

والاعتراض هنا يدخل ضمن قناعة لا تقدم و لا تُغير في مسار الحداثة والثقافة الغربية التي تهيمن وتغذي أطروحات كثيرة منها العولمة وأطروحة صراع الثقافات.

ولقراءة المشاريع الفكرية العربية الحديثة، ينبغي الإشارة إلى أنّ التفكير لدى العرب ،قد يعني الفهم أو التفسير أو نقل ثروة من المعاني من أجل الارتفاق،ويحاول هذا التفكير إحداث علاقة بين المعاني ومواجهة بينها وبين الواقع والتراث، وهو أمر لافت في التفكير العربي وهو غير معيب في ظل هيمنة المركزية الغربية،وتكاد معظم المشاريع العربية تنحو هذا النحو ويمكننا أن نتلفظ بهذا حيث يجب الفهم لكي يكون الاعتقاد،ولكن يجب الاعتقاد لكي يكون الفهم.وليست هذه الدائرة حلقة مفرغة،وهي أقل دائرة ميتة،إنها دائرة حية ومحفزة .يجب الاعتقاد لكي يكون الفهم:إنّ المؤوّل لن يقترب أبداُ مما يقوله نصه إذا لم يحي في هالة المعنى المتساءل عنه"[50]ينسحب هذا الأمر على الرموز والأساطير والمواد الشّعبية والعادات والتقاليد والحضارة والثقافة والإعلام والسياسة والنظم وكل النطف الفكرية والنقدية واللغوية، ينبغي خلق نوع من الموازنة بين (الفهم والاعتقاد) ،لأنّ الخواطر قد تقع متقاربة بين الأمم والشعوب.

- ثانيا الأطروحات الحديثة ومأزق التّجديد:

وسنمثل ببعض المشاريع منها : محمد عابد الجابري ، وطه عبد الرحمن حسين مروة،هشام جعيط، عبد السلام بنعبد العالي ، محمد أركون ،علي حرب وعبد الوهاب المسيري ونصر حامد أبو زيد،محمد شوقي الزين،أحمد الدلباني، محمد بنيس، إدوارد سعيد،وأدونيس ...وسنتحدث عن بعض القضايا التي تجرأ هؤلاء في إثارتها ،في ظل

[50]- بول ريكور:صراع التأويلات دراسات هيرمينوطيقية،تر منذر عياشي،مراجعة جورج زيناتي،دار الكتاب الجديد المتحدة،(ط1)،2005،ص351

هيمنة المركزية الغربية،وهل استطاعوا أن يحسنوا صنعاً للأمة العربية ،وهل تُقيم الأمة لهم اليوم وزنا أم نفذ كل الفكر وتسلل لنا الوهن ولم نعد في حاجة لمن يفكر ويجتهد ويصلح الأحوال ؟.

يرى عبد الوهاب المسيري أنّ "الحداثة تخص تحسن البشرية التي قد أصبحت من خلال فلسفات الذات واعية بنفسها وبماضيها وبمصيرها،وقد أصبحت الحداثة المحور الذي سنقرأ به الماضي وسنفهم الحاضر،ونستشرف المستقبل ونشرّع له،فهذه المحورية للحداثة هي التي تكونت بها فلسفة النهضة ،والحداثة هي أيضا وضعتها فلسفة الأنوار التي جاء بها القرن الثامن عشر،حيث "اكتشف فلاسفة الأنوار أنّ للبشرية تطورا مرحليا يصبغ تاريخها الطويل مؤكدين أن تحررها وانعتا قها سوف يكونان نتيجة لاستعمال العقل من حيث إنّه إقرار للشك المنطقي ورفض لكل حكم مسبق ولكل سلطان مهيمن"[51] .

وعلى ضوء هذه المحورية التي قال بها المسيري تحرك الفكر العربي،ناقدا لتراثه، ولواقعه،ومستشرفا مستقبله، يتصدر هذا الفكر اسم من الأسماء الكبيرة وهو الدكتور محمد عابد الجابري الذي ألف كتاب (تكوين العقل العربي)،وهو ضمن مشروع كبير وأساسي للتحديث هو (نقد العقل العربي)، وأطروحة (العقل) قد سبقه إليها كانط (نقد العقل الخالص)، وكتاب (تكوين العقل العلمي) لغوستاف باشلار، فالأول كان فتحا في "الثورة العقلية" والثاني فتتح أفقا جديداً في مجال البحث في أصول المعرفة العلمية وأسسها،أي ما أصطلح على تسميته ب " الأبستيمولوجيا "(دراسة الشروط الضرورية لإنتاج المعرفة ونقدها ..)[52]. والجابري لا ينساق لتقليد الصّياغات السابقة

[51]– عبد الوهاب المسيري،وفتحي التريكي: الحداثة وما بعد الحداثة،209

[52]– للتوسع ينظر علي حرب: مداخلات ، دار الحداثة،بيروت، (ط1)،1985،ص7 وما بعدها

وإنما يرُكّز على ضرورة (استئناف النّظر في معطيات الثقافة العربية)،وهو يشدّد في تفعيل معطيات الثقافة العربية على : البيان والبرهان والعرفان، وهي نظم معرفية تمثل المكونات الرئيسية للعقل العربي، وهو النظام البياني (علوم النحو والبلاغة والفقه والكلام،والنظام العرفاني، وهو(الكيمياء والتنجيم، والتصوف والتشيع والإسماعيلية، وأخير النظام البرهاني، وهو (المنطق والفلسفة والرياضيات والطبيعيات) ،ويدعو هذه الأنظمة ب (المعقول الديني العربي)،و(اللامعقول العقلي)،و(المعقول العقلي)[53].وإنّ "استئناف النظر إنما هو في الحقيقة استئناف البدء ومساءلة الأسس واستعادة الأصول،أي تأويلها.

ولاشك أن الجابري قام بتشريح ممتاز للعلوم العربية كالنحو والبلاغة والفقه والكلام، وكشف بجلاء عن الآلية التي استخدمها العقل في إنتاج مواده في هذه الفروع العلمية..وتجول في قطاعات الثقافة العربية، فهو مساح ممتاز.ولكنه ليس جيولوجيا ممتازا" [54] على ما يظن كثير من المهتمين بفكر الجابري،لأنه يتعذر على من رام قراءة الثقافة العربية القديمة ، أن ينطلق من قوانين يصنعها هو لممارسة سُلطة بعينها على هذه الثقافة المبهرة والمتنوعة في آن.

وهذا هو الاستغراب المقلوب الذي تحدث عنه حسن حنفي حين قال : ثم ظهر في جيلنا "استغراب" مقلوب،بدلا من أن يرى المفكر والباحث صورة الآخر في ذهنه رأى صورته في ذهن الآخر، وبدل أن يرى الآخر في مرآة الأنا رأى الأنا في مرآة الآخر. ولما كان الآخر متعدد المرايا ظهر الأنا متعدد الأوجه، نبدأ بمرآة الآخر ثم

---

[53]– للتوسع ينظر علي حرب: مداخلات،وينظر طه عبد الرحمن ومحمد عابد الجابري صراع المشروعين على أرض الحكمة الرُّشدية عبد النبي الحري، وينظر،أحمد علي زهرة :العقل العربي بنية وبناء دراسة نقدية لمشروع الجابري،الفكر الإسلامي نقد واجتهاد محمد أركون.

[54]– علي حرب : مداخلات، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان ، بيروت،(ط1)،23،1985

صورة الأنا فيها"[55].. ويلخص حنفي عيوب هذا الاستغراب المعكوس حسب علي صديقي [56] في الآتي :

1/ اختيار جزئي من التراث الغربي،وليس الغرب ككل. 2/ نزع هذه الأجزاء خارج بيئتها مع أنها نشأت كرد عل على مذاهب أخرى. 3/ قراءة التراث الإسلامي من منظور الجزء الدخيل، مما يطمس خصوصية الجزء المقروء. 4/ ابتسار الكل،تراث الأنا، ورده إلى جزء مشابه في تراث الآخر حتى يحدث التلقيح والتشابه.

ولذلك فإن التراث العربي كلّ لا يتجزأ،ويمتاز بالشّمولية والتّداخل ، وفهمه في سياقاته المختلفة (الاجتماعية والتاريخية)،يتطلب وعيا كبيرا بهذه الظروف، ولا يمكن أن نستحضر النّموذج الأجنبي في تطويعه وتحليله، وربما هذا الخلل والخلط هو الذي وقع فيه جل مفكرينا،ومن هنا وقع التّفكير في مَتاهات كبيرة ، ووهم على مستوى التفكيك والتأويل.

وقد نحا هذا المنحى في تفكيك التراث أدونيس في قراءته المستفيضة حول الثابت والمتحول في الفكر العربي، واستقدم الأدوات الغربية ، وتخيّر بواسطتها النماذج الشاذة،والذي يريد قياس وفرة الآراء التي قال بها أدونيس اتجاه الموروث وكامل مواده ،وقدرة احتكامه للنموذج الغربي يراجع ما كتب[57] في دراساته المتعددة والمثيرة للجدل،فهو يثير المخاوف حول المواد التراثية (السياسية والاجتماعية والتاريخية والدينية)، ويقدم أطروحات سوداء توهم بالموضوعية،وتؤكد أن الإنسان العربي- اليوم- يمر بنقلة حضارية جريئة إذا انقطع عن موروثه ومقومات حياته.يريد أن يقدم

[55]- حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، (ط1)،2000، ص55

[56]- علي صديقي: مطارحات نقدية في الأدب والفكر،ص106

[57] -للتوسع ينظر (الثابت والتحول، أدونيس والإثم الهيراقليطي عادل ضاهر،أدونيس :محاضرات الإسكندرية.سفر الخروج،أحمد الدلباني.

التراث في "عزلة" ليسهل اغتصابه،وهو باختياره لتلك النماذج المهمشة في تاريخ العرب والمسلمين يطمح لتحويل هذه الذات إلى حشرة كما قال كوفكا.

يرُافع من أجل الحداثة وجميع إفرازاتها ، وعن العولمة والعلمانية وعن المشاعيَّة والتخنث، ولا يمكننا إنكار تأثيرها في كل ما يُصدر شعراً ونثراً، وقد أخضع بمعجمه التراث للمحاكمة ، ويُقحم نفسه في كثير من الخبث، وكأنه" وجد نفسه في المكان الخطأ، أمام متاهات لا حدود لها، ولا حصر لها، إنه عالم غامض، أمام شخص لا حول له ولا قوة اطلاقاً، سوى التّدحرج في مجموعة أخطاء عبثية"[58]، وهو كما قيل مثير للدهشة، و مثير للأسى، في منطق كتاباته ومنطق تفكيره..

ويشترك أدونيس والجابري مع محمد أركون في المناداة بدمج الإسلام مع باقي المفاهيم الغربية ،أو ما يطلق عليه (علمنة الإسلام)، وهؤلاء كرسوا وجهة النّظر الغربية في فهم الإسلام وأطروحاته، يقول محمد أركون" حظيت فترة القرن الثالث والرابع الهجريين باهتمام غربي كبير، ثم انحسر هذا الاهتمام وعاد مرة أخرى لينشغل بالسنوات الثلاثين الأخيرة من مسار الإسلام و تاريخه أو ما يسمى: بظاهرة الأصولية الإسلامية. ولم تهتم الدراسات الغربية بما بعد القرن الرابع الهجري وما قبل سبعينيات القرن العشرين من مراحل وحقب. وهذا يدفع إلى القول بضرورة إعادة كتابة تاريخ العالم المتوسطي سواء من الجهة الأوربية أم من الجهة الإسلامية، والمقصود بالجهة الإسلامية هنا العربية فالتركية فالإيرانية. وضمن منظور الرؤية التاريخية وفتراتها، ينبغي أن تتموضع ظاهرة الهيمنة أو الغلبة المتزايدة للغرب وظاهرة التدهور المتزايد للمجتمعات العربية والإسلامية في مرحلة ما بعد الاستقلال...وفي الضفة المقابلة لأوربا، نجد أنظمة عسكرية سيطرت على الحكم وحجبت الفضاء

[58]– كافكا في النقد العربي (البداية)،1994-2005، دار الحصاد للنشر،سورية ، دمشق، (ط1)، 2006، ص279

الكلاسيكي للإسلام والقائم على الحوار والاستيعاب.

وقدمت خليطاً من أفكار الحداثة من الحرية والعدالة والتسامح والتّقدم ونداءات عاطفية هائجة وممارسات مزروعة في أوساط تقليدية وتراثية.وبدلا من الانخراط في نقد التراث من الداخل،فضلت القيادات السياسية الاستيراد السهل والخلط بين المتناقضات وعدم تحمل المسؤولية التاريخية الحقيقية"[59]،ونظام المعنى في الفكر العربي الحديث الذي يقول به أحمد الدلباني ليس "منفتحا ولا تعدديا"[60]،وهو من "منظور نقدي تفكيكي لم يتخلص من البنية الدينية رغم تعلمنه الظاهر وثورته المزعومة.لماذا ؟ لأنّ نظام المعنى عندنا لم يتغير في عمقه، وظلّ قائماً على ما يسميه أدونيس "المسبق"[61]، فمحمد أركون كمحمد عابد الجابري، يقترح في مشروعه الفكري تخليص التّاريخ الإسلامي من الخرافات التي علقت به ،وينادي بمساءلته من أجل نقد العقل الإسلامي بما هو جملة من الآليات المعرفية ، ولكنّه استحضر لهذه المساءلة ترسنة من الأدوات الغربية التي لا يمكنها تخليص التاريخ الإسلامي مما علق به من تشويهات وإخفاقات،والتي ينظر إليها محمد أركون أنها محور لفهم وتفسير الإسلام. والحفر على مكامن القوة والضعف فيه ، وكشف الهوامش التي تساعد على تأويل طقوس الماضي المعاد إنتاجه. ولكن محمد أركون يرى أن الخطاب الإسلامي الراهن خطاب جماعي اجتماعي وليس ظاهرة لأنه يعيش اغتراب مزدوج ،عن العالم وعن تراث، وهو خطاب غارق في الانتفاخ، وهو خطاب إيديولوجي بالمعنى التام[62].

---

[59] –محمد أركون: رهانات المعنى وإرادات الهيمنة،تر هاشم صالح، دار الساقي،لندن وبيروت، من خلال محسن بن زاكور: مقاربة منهجية لبعض القضايا الآنية للفكر الإسلامي المعاصر، ص35

[60]– أحمد دلباني،سفر الخروج ،ص18

[61]– أحمد دلباني : سفر الخروج ،ص19

[62]– المرجع السابق،ص63،64

ومن الأسماء الأخرى والتي يمكن أن نرى أنها خرجت من معطف أركون والجابري ، نذكر علي حرب، هشام جعيط،عبد السلام بن عبد العالي، حسين مروة ، وهناك بعض الاستثناءات مثل : عبد الوهاب المسيري، إدوارد سعيد،وطه عبد الرحمن، ونصر حامد أبوزيد الذي تعامل مع التراث بطرائق انبثقت من قناعات تفضي إلى إعادة قراءة التراث وخاصة قراءة علوم القرآن التقليدية قراءة نقدية تحليلية، وهولا يحمل الإخفاقات للنّص،وإنما يرى أن اختزال التراث في الإسلام، أدى إلى اعتباره هوية يمثل التخلي عنها وقوعا في العدمية وتعرضا للضياع.وهو المعبر عن عراقتنا وأصالتنا في تاريخ الوجود الإنساني،في حين أصبح التقدم مرتهنا باستيعاب ما أنجزه العقل البشري في مجالات المعرفة العلمية، الأمر الذي يعني التعلم من الآخر الذي تعرفنا عليه أول ما تعرفنا معتدياً غازيا محتلا لأراضينا مستغلا لأوطاننا[63].

فهو يشابه أدونيس ومحمد أركون في إمكانية الأخذ من الغرب لتطوير حياتنا ، ولا ينبغي النظر أو حصر التراث في الإسلام،لأنّ التراث كما رأى الجابري أبواب هي (البرهان)، و(البيان)، و(العرفان) ، وهو لا يدل على السكون والخمود، بل فيه نماذج راقية يمكنها أن تنتهي بنا إلى التّقدم والخَلاص.

واختزال التّراث في الإسلام أوحى إلينا بأنّ الحضارة الحديثة هي للآخر المتفوق والمعتدي والمتقدم والمعلم كذلك. لذلك ينبغي تحرير الإرادة البشرية من الأوهام التي علقت بها ليتجَاوز محنة الضعف والانكسار. وهو لا يريد العودة المرعبة كما قال علي حرب ، وإنما يريد عقلانية وقناعات تنتهي بنا إلى احترام خصوصياتنا واحترام انجازات الآخر الذي لا يمكن أن نتواطأ معه من أجل تخريب ذواتنا وتراثنا الذي هو

[63]– نصر حامد أبو زيد: النص والسلطة والحقيقة إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي،(ط5)، 2006 ، ص13

أوسع وأشمل، وعلينا أن لا نكون ضحايا أفكارنا، كما تتجسم في أشكال الوعي و أنماط التفكير ونماذج الرؤية وقواعد المعاملة: الأحادية الفكرية، النرجسية الثقافية، الطوباوية الأيديولوجية، الخوف من التغيرات، استدعاء الآخر والعالم، التهرب من حمل المسؤولية والإحساس بالمظلومة، فضلا عن أخطر الآفات والأمراض، كما يتمثل ذلك في عبادة الأصول وتقديس النّصوص وإرادة التّأله، أي كل ما يصنع الهزائم والكوارث"[64]. وما يهمنا- لتسهيل العبور- في كل ما سبق هو (الوعي) بأنّ المنطقة العربية واقعة تحت المظلة الغربية، وأنّ الخطاب العربي الحديث ظاهره مقاوم وباطنه – للأسف- بذخيرة ضعيفة لا يمكنها أن تنهض بها وتحقق وجودها، ولذلك قلنا بالوهم اللا محدود على مستوى القراءة والتحليل ، وقلنا بالمتاه والتلاشي في التأويل والاعتقاد في نتائج هذا التأويل.

الخاتمة

تجديد الفكر العربي الحديث (رؤية استشرافية):

الفكر العربي الحديث إذن مشغول إلى حد الهوس ، بإعادة القراءة ، وإعادة تفكيك الثقافة العربية بدءا بالجذور، فإنه يؤمن بأنّ الأجوبة تكمن في ذات الإنسان ،وفي ركن من أركان هذه الأرض،طبعا الأرض التي يعيش سكانها حالة من القلق وعدم الاستقرار، ويحاولون دائما الخروج بأقل الأضرار، ولذلك فالفكر اليوم يتساءل عن حل يتيح التخلّص من هذا المأزق الحرج الذي يعيشه الإنسان بعامة والإنسان العربي خاصة. وهو يبحث عن قيم جديد تجعل هذا الكائن يقوم بترميم شبكات التواصل مع أبناء جلدته، وبدون توهم ينبغي أن نؤمن بحقيقة القيم كما يقال، ونؤمن بها برغم أن الهوة مُؤلمة وقد تغرقنا في آلام أكيدة.

---

64 – علي حرب: تواطؤ الأضداد الآلهة الجدد وخراب العالم، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، (ط1)،2008،ص127

ولعلّ هذه الاعتبارات هي التي تكون مداخلاً لضرورة تجديد الفكر العربي،وذلك بتقويم اعوجاج التراث من جهة ، واعوجاج الحداثة من جهة ثانية، كما يقتضي هذا التقويم إعادة النّظر في المتلقي أو القارئ لهذه الحُزم الفكرية الوافدة من تراثنا ومن غيره وخاصة تلك المتعالية التي قدّمت نفسها على أنها البديل الذي يُعوَّل عليه في قيادة الانسان إلى الحياة الكريمة.

ليس خفياً أنّ مجابهة هذا التعالي يكون بتقديم الفكر العربي بمنطق العقل الذي هو المعرفة والعلم ،والفهم والتّعقل، والاعتقاد، والتفكير مع العمل كما يرى طه عبد الرحمن، وبذلك نتوجه نحو الأخلاق كآلية للخروج من المزالق التي أوقعتنا فيها العولمة ، والتّسرع المستمر في فهم مقولاتها .

إنّ القيام بعملية الهدم أو بالأحرى التقويم، ينبغي أن يُرافقه فعل البناء الذي نتطلع فيه إلى تكوين كيان جديد بخلاف القيم الغربية التي هي قيم خاصة وليست قيم كونية كما يتوهم بعض المغرر بهم اليوم .لأنّ الإسلام الذي نحيا به وفيه وله. لا يفصل بين الدّين والحياة، وبين الدّنيا والآخرة، وبين الروح والجسد.. فهو لا يريد تمزيق "الجبهة الفكرية" بين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والدين، ويؤكد "وحدة النفس الإنسانية "، ولا يكترث هذا الإسلام بالطعن والإحالة إلى قلة حيلته ،ومحاولة طمس وإتلاف معانيه ،لأنه يدرك أن قوته من داخله قبل أن تكون لدى معتنقيه . ولذلك فالإسلام يمكن تطبيقه في سياقات ثقافية مغايرة ،ويعبر الحدود ،وهو جدير بالاحترام ، فهو يحمل سمات تميزه التاريخية والاجتماعية، كما أنّه منطلقاً –بالتأكيد– للارتقاء بالنّفس الإنسانية.

ونحن نؤكد مع أدونيس أنّ هوية الفرد في البلاد العربية تولد معه، وهي سؤالا وبحثا في كونها لا تكتمل، إلاّ بهذا التّواصل والاستمرار مع منجزاتها التراثية، وقدرتها على

التّفاعل مع غيرها، ومن هنا كان الصّراع الثقافي وكان التّداخل ، ورحمة نقول امتزاج الثقافات وحوار الحضارات، وعلى هذا المستوى تتخطى الهوية الاعتقاد وتنتعش مع العناصر الأخرى وخاصة اللغة لأنها مشحونة بالفكر التي تكون سببا في وجوده. ومن هنا أرى ضرورة النّظر بعين الجد إلى الأطروحات التي يقدمها الفكر حول اللغة وحول الجسد القائم على فكرة الزوجية، واحترام الجسد وعدم احتقاره ،من خلال تأويل النّص الجسماني، والنّظر إليه على أنّه عنصر مهم في هذا الوجود، لذلك فالعناية به لا يتعارض مع الدين ، وقد يخلصه من البؤس الذي أوقعته فيه التّجاوزات الإباحية التي فرضها الإلحاد .وضمن هذا المنظور يمكن للفكر العربي أن يجدد نفسه مع الإبقاء على الثوابت الدينية والتاريخية والأخلاقية، ليتدخل في توجيه حياة الناس، والقضاء على الثرثرات المجردة الفارغة التي تحمل بذرة فنائها .. وعلى أساس ما قدمناه من إشكالات، وعلى ضوئها، يمكن القول، إنّ الفكر العربي يزداد تأزما واختناقا وتخلفا، مالم تتضح العلاقة بين هذا الفكر والتراث العربي الإسلامي، والتراث الإنساني بعامة، ولذلك يصبح من الضروري أن نحاور كل التيارات الفكرية والتّصورات، ونوطن أنفسنا على الأخذ بما هو منطقي وصالح لا يتعارض والعوامل الداخلية والخارجية التي تميّز الفرد في البلاد العربية ،لأنّ ذلك التلاقح المفيد سيصبح نافعا وملائما لواقعنا المأزوم والمهموم فعلاً.

وفيما يبدو فإنّ الفكر العربي الحديث يعاني نوعا من الفوضى البغيضة ناجمة عن حياد المجتمع عن قيمه، وهو خلاصة رمزية نهتدي بها على مالا يمكن أن يكون مقبولا في المجتمع، فكل المواضيع المستهدفة تدل على الفوضى، والانحطاط والجمود، وسيكون الإنقاذ كما أسلفنا هو العودة بالذّات إلى "الإيمان بالنّظام والمدنية الحديثة والاجتهاد". كما أن عملية التّحديث المنشودة ينبغي أن تمر ب (التحليل العلمي للواقع والتراث)، و(تعريب التيارات الفكرية الغربية ومعرفة العدو)، و(تدارك التأخر التاريخي لدى المثقف العربي)، وأخيرا (تحديث الذهنية).